

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَىٰ . إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ . فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ
بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ .
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا
تَرَدَّىٰ . إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ . فَأَنْذَرْتُكُمْ
نَارًا تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .
وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
مِنْ تَعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا أَتْبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْتَضَىٰ ﴾

صدق الله العظيم

obbeikandi.com

السورة مكية مبكرة ، والمشهور في ترتيب نزولها أنها تاسعةُ السور ، نزلت بعد سورة الأعلى ، ثم نزلت بعدها على الترتيب سورتا الفجر والضحى .

وقد ربطها بعضهم بسورة الشمس التي قبلها في ترتيب المصحف ، قالوا : « ولما ذكر فيها قبلها ، أى الشمس : « قد أفلح من زكاه » وقد خاب من دساها » ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح وما تحصل به الخيبة ، ثم حذر النار وذكر من يضلها ومن يتجنبها »^(١) .

وهذا الربط قد يلفت إلى ملحظ في ترتيب السورة في المصحف ووضعها بعد الشمس . وأما من حيث النزول فإن سورة الشمس نزلت بعد الليل لا قبلها ، فهى السورة السادسة والعشرون على المشهور في ترتيب النزول ، فبينها وبين سورة الليل قبلها ، ست عشرة سورة .

وقيل إنها نزلت في أبى بكر الصديق وإنفاقه ماله على المسلمين ، وأمىة بن خلف وبخله وكفره . وفي قول آخر إنها نزلت في أبى الدحداح الأنصارى ، ورووا قصة النخلة التي عرض الرسول ﷺ ، على أحد المنافقين ، أو اليهود ، أن يبيعها بنخلة في الجنة فأبى ، واشتراها أبو الدحداح^(٢) .

والعبرة على كل حال بعموم اللفظ ، والسياق صريحٌ التوجيه إلى عامة الناس . إن سعيكم لشتى .

وتقاربُ سور (الليل والفجر والضحى) في النزول ، يجلو الظاهرة الأسلوبية التي يعمد فيها البيان القرآنى إلى جلاء المعنويات بماديات من النور والظلمة في مختلف درجاتها على مدى اليوم الواحد ، من غشية الليل وتجلي النهار ، وإشراق الضحى وسجو الليل ، وتائق الفجر ومسرى الليل وتنفس الصبح .

ويتتابع الوحى من بعد ذلك فيؤصل هذه الظاهرة البيانية فيما يجلو من معنويات الهدى والضلال ، بحسبَاتِ النورِ والظلمات .

• • •

(١) و(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٤٨٢/٨ .

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى • وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى • » .

الغشية في اللغة الغطاء ، والغاشية الغشاء الذي يغلف القلب . واستغشى ثوبه وبثوبه ، تغطى به لكي لا يرى ولا يسمع . ومن غشيت النعاس المعطلة للحس والإدراك ، جاءت غشيت الإغماء فقليل أغشى عليه إذا فقد وعيه وحسه كأنما عليهما غطاء . وكذلك يقال للغافل : على بصره أو على سمعه غشاوة ، أي غطاءً يحجب الرؤية ويعمي البصيرة ويعطل السمع والإدراك .
والغواشي الأهوال ، أو الظلمات تلتق لفاعها الأسود . ومنه جاءت الغاشية اسماً للقيامة أو للنار تغشى المعدبين .

وفي الاستعمال القرآني ، جاءت الغاشية على معناها في استغشاء الثياب حاجزاً دون السمع والبصر ، كنايةً عن الصد ، في آية نوح ٧ :

« وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَقْبَلُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سَكْبَارًا • » . ومعها آية هود ٥ .

وفي النور الدافق والجلال الغامر بآية النجم : « إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى • » .

وجاءت الغشية في النعاس في آيتي

(آل عمران ١٥٤ ، والأنفال ١١)

(الأحزاب ١٩ ، محمد ٢٠)

وفي الإغماء بآيتي

وفي الغشاوة على القلب والسمع والبصر بآيتي

(البقرة ٧ ، والحجرات ٢٣)

وكثر مجيء الغشية في الحديث عن يوم القيامة :

« هل أتاك حديثُ الغاشية ؟ »

« فارتقب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين • يغشى الناسَ هذا عذابُ أليم • »

وفي الوعيد بعذاب الآخرة في آيات :

« يومَ يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم • »

(المنكوت ٥٥)

« سراييلهم من قَطْرانٍ وتغشى وجوههم النارُ » (إبراهيم ٥٠)
 « لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غَواشٍ وكذلك نَجْزِي الظالمين »
 (الأعراف ٤١)

كما جاءت في غشية الموج ، وغشية الظلمات وتراكمها في آيات :
 « أو كظلمات في بحرٍ لُجِّيٍّ يغشاها موجٌ من فوقه موجٌ »
 (النور ٤٠)

« كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، أولئك أصحاب النار »
 (يونس ٢٧)

وآيات (لقان ٣٢ ، طه ٧٨ ، الرعد ٣ ، الأعراف ٥٤ ، الشمس ٤)
 وآية الليل ، والغشية فيها غطاءً من ظلماتٍ داجية .

والتجلى لغةً الظهورُ والانكشاف . ومن الاستعمال الحسي للمادة : الجلاء انحسارُ
 مقدّم الشعر ، والجلاء الكُحلّ يجلو البصرَ ، وجلوة العروس عرضها مجلوة في زينتها .
 وجلال السيفِ والمرأة صقلها وأزال ما قد يكون غطاها من صدأ وغبار .
 ومن دلالة الانحسار جاء الجلاء عن مكان ، وجلالهم عنه أذهب .
 ومن ملحظ الكشف : جلا الأمر أوضحه وبينه فانجلي وتجلي ، والجليلُ الأمر
 البين . والتجلي الإشراق والتألق .

وفي الاستعمال القرآني : جاءت المادة في خمسة مواضع ، إحداهما آية الحشر في
 الجلاء عن الأرض : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا
 وهم في الآخرة عذاب النار » ٣ .

والمرات الأربع الباقية في تجلّي النور الإلهي بآية الأعراف ١٤٣ :
 « فلما تجلّى ربُّه للجبلِ جعله دكاً وخرَّ موسى صَعِقاً »
 وأمر الساعة ، بآية الأعراف ١٨٧ :

« قل إنما علمها عند ربِّي لا يُجَلِّئها لوقتها إلا هو »

وفي إشراق النهار ، بآية الشمس : « والنهار إذا جَلَّأها » .

والليل : « والنهار إذا تجلى » .
 والآية لم تذكر مفعول « يغشى » وقد تأولوه إما على تقدير : يغشى النهار كله ،
 كقوله تعالى : « يُغشى الليلَ النهارَ »
 أو يغشى الشمسَ ، كقوله تعالى : « والليل إذا يغشاها »
 وقيل الأرض وجميع ما فيها ، يغشاها الليل بظلامه .
 ومثله وقوف مَنْ وقف عند « والنهار إذا تجلى » ليتأول سبب التجلى « إما بزوال
 ظلمة الليل ، وإما بنور الشمس » .

ونرى أن القرآن الكريم في إمساكه عن ذكر متعلق ليغشى أو تجلى ، يصرفنا عن
 تأويل محذوفٍ أو مُقدَّرٍ، لثلتفت إلى أن العشيَّة والتجلى ، من الليل والنهار ،
 هما المقصودان بالتبنيه والاتفات ، بما أغنى عن ذكر مفعولٍ أو متعلقٍ . . .

وسورة الليل مبدوءة بواو القسم ، وهو عند المفسرين للإعظام ، على أصل استعماله
 في اللغة . والذي أطمئن إليه ، هو أن البيان قد يعدل عن هذا الأصل للمحظ بلاغى في
 التعبير ، كمثل عدوله في الاستفهام والأمر والنهى عن أصل استعمالها الأول ، إلى
 تقرير أو إنكار ، أو زجر ووعيد ، أو سخرية وتوبيخ ، أو تعجيز وإفحام . . على ما هو
 مألوف ومقرر في علم البيان .

لكن المفسرين لم يلتفتوا إلى احتمال أن يكون القسم بالواو هنا ، وفي نظائرها من
 الآيات المستهلة بالواو ، قد جاء على غير استعماله اللغوى الأول ، للمحظ بيانى . وإنما
 هو عندهم جميعاً على أصله من الإعظام والتعظيم ، ومن ثم شغلوا بتأول وجه العظمة
 في الليل والنهار .

نقل الطبرى عن قتادة : « أن الله أقسم بهما لعظم شأنهما ، فهما آيتان عظيمتان
 يكرهما الله على الخلائق » .

وقال « أبو حيان » في البحر المحيط : « أقسم بالليل الذى فيه كلُّ حيوان يأوى إلى
 مأواه ، وبالنهار الذى تنتشر فيه » .

والفت « ابن القيم » إلى اختلاف أحوال الليل والنهار في أقسام القرآن ، وتأوله بأن

الله سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله ، إذ هو من آياته الدالة عليه^(١) .
 وزاده الفخر الرازي تفصيلاً فقال : « اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوى فيه
 كل حيوان إلى مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويفشاهم النوم الذي جعله الله
 تعالى راحة لأبدانهم وغذاءً لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى لأن النهار إذا جاء
 انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس
 لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكانها ، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر
 المعاش ، ولو كان نهاراً كله لبطلت الراحة ، لكن المصلحة في تعاقبها^(٢) .
 ولا يكاد يخرج عنه ما ذكره الشيخ محمد عبده في سورتي الليل والضحي ، من
 (تفسير جزء عم) .

وهذا الكلام في المصلحة من تعاقب الليل والنهار ، هو من قبيل الحكمة التي تتحقق
 في كل ما خلقه الله ، وما من شيء خلق عبثاً . والقرآن حين يقصد إلى أن يلفت إلى
 آيتي الليل والنهار ، فإنه يجلو وجه هذه الحكمة بمثل آيات :

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير
 الله يأتاكم بضياء أفلا تسمعون » قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار
 سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه
 أفلا تبصرون ؟ (القصص ٧١ ، ٧٢)

« ومن آياته منأمكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله إن في ذلك
 لآيات لقوم يسمعون » (الروم ٢٣)

« وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً »
 (الفرقان ٤٧)

« وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة
 لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء
 فصلناه تفصيلاً » (الإسراء ١٢)

(١) البيان في أقسام القرآن : ص ٥ .

(٢) تفسير الرازي : ٨ / سورة الليل .

« هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يُفصل الآيات لقوم يعلمون » إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآياتٍ لقوم يتقون » (يونس ٦)

وانظر معها آيات : (الأنعام ٩٦ ، يونس ٦٧ ، النمل ٨٦ ، آل عمران ١٩٠ ، الجنات ٥) .
وليس على هذا النحو من بيان الحكمة ، تأتى آيات القسم بالواو بالليل والنهار التى عنى المفسرون بتأويل ما فى خلقها من حكمة وما فى تعاقبها من مصلحة .
غير ملتفتين إلى أن هذا التأويل حين يصدق على الليل مطلق الليل والنهار مطلق النهار ، فإن الليل والنهار فى سورة الليل مقيدان بالغشية والتجلى . وفى آيات أخرى يأتى القسم ، بالواو ، بالليل إذا سجد ، وإذا عسعس ، وإذا يسر ، وإذا وقب ، وإذا أدبر . وبالفجر ، والصبح إذا أسفر ، وإذا تنفس ، والضحى .
ولابد أن يكون لكل قيد منها ملحظ فى الدلالة يختص به .
وإذا لم يتعلق البيان فى آيتى (الليل) بغير غشية الليل وتجلي النهار ، نلمح السر البياني فيما تلفت إليه الواو من تقابل واضح محسوس ومدرك ، بين غشية الليل بظلماته ، وتجلي النهار بضياؤه .

ومثله فى الوضوح ، التفاوت بين خلقه الذكر والأنثى :
« وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » .

تاوها المفسرون على احتمال أن تكون (ما) بمعنى من ، فيكون القسم بمن خلق الذكر والأنثى ، أو أن يكون « ما خلق » فى موضع المصدر ، أو على توهم المصدر ، فيكون المعنى : وخلق الذكر والأنثى ، ونظروا له بقول الشاعر :
تطوف العفأة بأبوابه كما طاف بالبيعة الراهب
يجر الراهب على توهم النطق بالمصدر ، أى كطواف الراهب بالبيعة .
والجزء هنا أقرب عندى إلى أن يُحمَل على المجاورة .
ولا يبدو لى وجه لهذا التنظير ، وفى الآية « ما » وليست فى الشاهد من قول الشاعر .

ثم اختلفوا في المقصود بالذكر والأنثى :

ففي تفسير الرازي والبحر المحيط ، أنها آدم وحواء ، أو هما كل ذكر وأنثى من بني آدم ، أو من كل حيوان على اختلاف أنواعه ، ذكره وأثاه .
والتفت ابن القيم إلى التقابل بين المقسم به في آيتي (الليل) واتجه به إلى بيان وجه الإعظام ، قال :

« قابل بين الذكر والأنثى ، كما قابل بين الليل والنهار . وكل ذلك من آيات ربوبيته ، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية ، كإخراج الذكر والأنثى في الأجرام السفلية » .

على أنه عاد فربط بين هذه المتقابلات على وجه آخر ، هو أنه سبحانه « أقسم بزمان السعي وهو الليل والنهار ، وبالساعي وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعي كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى ، وسعيه وزمانه مختلف وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه » .

وهذا على قربه ، لا يبدو متصلاً بما ذكره آنفاً من أجرام علوية وسفلية .

ونركز اهتمامنا على تدبر ما يسيطر على السورة كلها من ملحظ التقابل والتفاوت ، يبدأ باللفت إلى ما هو حسي مدرك في تفاوت ما بين غشية الليل وتجلي النهار ، وخلقة الذكر والأنثى ، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعي الناس : بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، ومن نجح واستغنى وكذب بالحسنى ، ثم تفاوت الثواب والعقاب في الآخرة : بين الأشقى يصلى ناراً تطفى ، والأتقى الذي يُجنّبها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .

فعلى نحو ما يتفاوت الليل إذا يغشى بظلماته ، والنهار إذا تجلّى بضياؤه يتفاوت سعي الناس في الدنيا بين ضلال وهدى :

« إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى » .

والسعي في اللغة المشي ، نُحِط فيه أن الساعي يبتغي عملاً أو يتجه إلى مقصد يدأب فيه ، فكان السعي بمعنى العمل مع القصد والدأب .

وفي الاستعمال القرآني للمادة ، نجد الدلالة الأولى للسعي بمعنى المشي والحركة ، على الحقيقة أو التخيل والمجاز ، في آيتي (طه) عن عصا موسى ألقاها « فإذا هي حية تسعى » وحبال السحرة وعصبيهم ألقوها « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » وفي آيتي التحريم والحديد ، في نور المؤمنين « يسعى بين أيديهم » يوم القيامة .

كما نجد دلالة السعي على العمل مع الدأب في آيات :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ »

(الأنبياء ٩٤)

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم

(الإسراء ١٩)

مشكورا »

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا

(الكهف ١٠٤)

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »

ودلالة القصد أوضح في آيات :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا »

(البقرة ١١٤)

(المائدة ٣٣ ، ٦٤)

« ويسعون في الأرض فسادا »

وواضح أن السعي في آية الليل ، هو من العمل الكسبي مع القصد والدأب ،

ومثله السعي في آيات (الإنسان ٢٢ ، النجم ٤٠ ، الغاشية ٩) .

وأصل الشئ في اللغة التفرق والاختلاف ، ماديا ومعنويا ، وقد سبق استقراء آياته

في القرآن ، في تفسير آية الزلزلة « يومئذ يصدر الناس أشتاتا »^(١) فهدى إلى أن أشتاتا

تأتي بدلالة التفرق المقابل للتجمع . أما شئتي ، فن الاختلاف والتباين .

ولا نحتاج إلى تأول مقصد القرآن الكريم بتباين سعيكم ، فقد تولت الآيات بعده

بيانه :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى • فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى • وَأَمَّا

مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى • فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى • »

(١) التفسير البياني : الجزء الأول .

وهذا هو تفاوتُ السمي ، يأتي بعد أن مهد له اللفتُ إلى التفاوتِ المدركِ بالحسن ، بين غشية الليل وتجلي النهار ، بين خلقة الذكر وخلقة الأنثى .

والحسن في اللغة الجمال ، ويغلب استعماله في الماديات نقيضاً للقيح وفي المعنويات مقابلاً للسوء . والحسنى ضد السوأى ، صيغتا تفضيل للدلالة على غاية الحسن الذي لا حُسن بعده ، والسوء الذي لا يماثله سوء .

وفرق الراغب في (المفردات) بين الحسن والحسنة والحسنى ، فقال إن الحسن يستعمل في الأعيان وفي الأحداث ، وكذلك الحسنة إذا كانت وصفاً ، أما إذا كانت اسماً ففي الأحداث . والحسنى لا تستعمل إلا في الأحداث^(١) .

وأكثر ما جاء في القرآن من الحسن ، فللمستحسن من جهة العقل والبصيرة والشرع ، لا من جهة الحس .

وقد تأول المفسرون الحسنى بحسن العاقبة ، وبالإيمان بوحداية الله وبما يخلفه الله تعالى على المنفق .

وهي وجوه متقاربة ، وربما كان حسنُ العاقبة يؤديها جميعاً ، إذ فيه معنى الإيمان بالله ، والتصديق بالخلف .

ولم تحدد الآياتُ ماذا أعطى التقى ، ومن اتقى ، وبم بخل البخل ، وعم وعمن استغنى ؟

ونذهب مع أبي حيان في فهم حذف مفعولى أعطى « بأن المقصود الثناء على المعطى دون تعرض للمعطى والعطية ، وظاهره بذلُ المال في واجبٍ ومنسوبٍ ومكرمة »^(٢) .

فالإعطاء في الآية ، مقابل بالبخل ، وكلّ بخل في القرآن يتعلق بالمال وبما آتى الله من فضل ، باستقراء مواضع وروده في المصحف وعددها أحد عشر موضعاً ، ستة منها متلوة بغنى الله ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، والله ميراث السموات والأرض ، فإن الله هو الغنى الحميد .

(١) مفردات القرآن : مادة حسن .

(٢) البحر المحيط : ٤٨٣/٨ .

وإنه كذلك ، الإعطاء للبال والبخل به ، في آيتي الليل :

« فأما من أعطى واتقى » .

« وأما من بخل واستغنى » .

بشاهدٍ من النص بعدهما :

فيمن بخل : « وما يفنى عنه ماله إذا تردى »

وفيمن أعطى : « الذي يؤتى ماله يتزكى » .

وإعطاء المال أو البخل به ، إنما يكونان فيما يجب أن يُنْفَقَ فيه المالُ من وجوه الخير ، وأداء حق الله فيه إلى من يستحقونه ، زكاةً وصدقةً وبراً ، على ما هو بيّنٌ من تدبير الاستعمال القرآني للبال والأموال^(١) .

وللمفسرين في مفعول « اتقى » ثلاثة أقوال :

ففي قول عن ابن عباس أنه : « اتقى البخل »

ويرد عليه أن لفظ « أعطى » قبله يفيد هذا المعنى ، كما أن السياق بعده ، يأتي بالبخل وبالتكذيب في مقابل الإعطاء والاتقاء ، مما يبعد أن يكون اتقى بمعنى اتقى البخل .

والقولان الآخران هما : اتقى الله ، أو اتقى الحساب والعذاب .

والوجهان متقاربان ، فن اتقى الله اتقى عذابه في الآخرة ، ولا يتقى الحساب

والعذاب إلا من اتقى الله .

والوقاية في الأصل الحفظُ مما يضر ويؤذى ، ومنه في القرآن آية (النحل ٨١) وجاءت

التقوى في تجنب الإثم والمعصية ، ابتغاء مرضاة الله ووقاية من غضبه وعذابه .

ويهدى تدبير استعمال القرآن للاتقاء ، أنه يذكر المفعول دائماً مع فعل الأمر . وقد

جاء ثلاث مراتٍ خطاباً للواحد والمتقَى هو الله ، وخطاباً للجمع (اتقوا) نحو سبعين

مرة : خمس منها في اتقاء النار ، وعذاب الآخرة ، ويومٌ ترجعون فيه إلى الله ،

لا تجزى نفس عن نفس شيئاً .

(١) انظر : « من هدى القرآن ، في أموالهم » للأستاذ أمين الخولي ، ط دار المعرفة .

ومرتان في اتقاء فتنة ، واتقاء ما بين أيديكم .

والمَتَّقَى في بقية الآيات ، هو الله سبحانه .

وأما الفعل الماضي والمضارع ، فقد يمسك فيهما عن ذكر المفعول به ، وحين يصرح

به فالمتقى هو الله سبحانه وتعالى .

وهذا الاستقراء يؤذن بأن الاتقاء في القرآن يغلب أن يكون اتقاء الله واتقاء حسابه

وعقابه .

ومن المهم أن نشير إلى أن التقوى ، كالخشوع ، من أفعال القلوب . بمعنى أنها

لا تكون إلا في القلب ومن القلب ؛ فالعبرة بتقوى القلوب ، وهو ما يبدو بوضوح في

مثل آيات :

« ذلك وَمَنْ يُعِظَّمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوبِ » (الحج ٣٢)

« لن ينالَ اللهُ لِحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »

(الحج ٣٧)

« أولئك الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى ، لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ »

(الحجرات ٣)

« وتناجوا بالبرِّ والتقوى واتقوا الله الذي إليه تُحشرون » (المجادلة ٩)

وجاءت التقوى نقيضاً للفجور في :

« ونفسٍ وما سواها . فآلهمها فُجورَها وتقواها » (الشمس ٨)

« أم نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كالمفسدين في الأرضِ أم نجعلُ

المتقين كالفجارِ » (ص ٢٨)

والصدق في الأصل : مطابقة القول للواقع أو لما في الضمير . ويستعمل في صدق

الفعل ، وصدق النية والعقيدة . وأكثر ما يكون التصديق في القرآن الكريم بمعناه

الديني في التصديق بالله وآياته ورُسُلِهِ وكلماته ، ولقائه . . .

وهـ الحسنی « جامعة لكل ما قال المفسرون في تأويلها : الخلف في الدنيا والآخرة ،

والجنة والثواب ، والتوحيد . . .

وإن كان الأولى إطلاقها لِتَعْمُّ فلا نختص بوجه من هذه الوجوه .

واليسر ضد العسر ، وقد سبق استقراء آياتها في (سورة الشرح) بالجزء الأول من هذا الكتاب .

وفسروا الآية بأنها التهيئة للحالة التي هي أيسر على المصدق بالحسنى ، في الدنيا والآخرة .

وقال الزمخشري : « سَمَّى طَرِيقَةَ الْخَيْرِ بِالْيَسْرِ لِأَنَّ عَاقِبَتَهَا الْيَسْرُ ، كَمَا سَمِيَ طَرِيقَةَ الشَّرِّ الْعُسْرَ لِأَنَّ عَاقِبَتَهَا الْعُسْرُ ، أَوْ أَرَادَ بِهَا طَرِيقَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، أَيْ : فَسْهَدِيهَا فِي الْآخِرَةِ لِلطَّرِيقَيْنِ » .

والتيسير لليسرى هو وعدُ الله للباذلين المعطين المتقين ، ولم تأت « اليسرى » في القرآن إلا مع التيسير مستنداً إلى الله جل جلاله ، وذلك في آيتين :

آية الأعلى : « ونيسرك لليسرى » خطاباً للمصطفى عليه الصلاة والسلام .
وآية الليل في « من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » . تأتية البشرى بمثل ما بُشِّرَ به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من تيسير إلهي لليسرى .

أما العسرى فلم تأت بهذه الصيغة إلا في آية (الليل) ، وإن جاء العسر مقابلاً لليسر في آيات (البقرة ١٧٥ ، والطلاق ٧ ، والشرح ٥ ، ٦) كما جاءت صيغتا عَسِرَ وعَسِيرٌ ، صفةً ليوم القيامة بخاصة ، في آيات (القر ٨ ، اللذرة ٩ ، الفرقان ٢٦) وهذا الاختصاص يجلو حيسً البيان القرآني للعسر الذي استعملته العربية في قديمها الجاهلي اسماً لقبيلة من الجنِّ أو أرض يسكنونها . ثم قيل العَسِيرُ للشكسِ الشرس ، وللاتنى عَسْرٌ ولأدُّها . واعتسارُ الفرس ركوبُه قبل ترويضه .

وغير مقبول قولُ من قال إن « العسرى » جاءت في آية الليل لمجرد رعاية الفاصلة ، فما يجوز في البيان العالي التعلق بملحظٍ شكلي في اللفظ لا يقتضيه المعنى . وقال « الزمخشري » في التيسير للعسرى : فسنخذله ونمنعه الإلطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد . ولمح « أبوحيان » في هذا التأويل « دسيسة اعترال »^(١) .

وقلما يفرق المعجميون في الدلالة بين العسر والعسرى حين يسوقونها سرداً في مصادر

الفعل عسر. مع أن العربية تغير من صيغ المصدر للمحظ خاص في الدلالة ، كالرأى والرؤيا والرؤية : مصادر رأى ، والوجود والوجد والموجدة والوجدان : مصادر وجد ، والسعى والمسعى والسعاية : مصادر سعى .

ونرى أن استعمال العسرى ، كاستعمال اليسرى ، ليس ملحوظاً فيه المصدرية كالعسر واليسر ، وإنما الملحوظ فيها ، بصيغة الفُعْلَى ، أقصى اليسر وأشد العسر ، أو هما اليسر الذي لا يسر مثله ، والعسر الذي ما بعده عسر. ونظيرهما في القرآن من غير المادة : البطشة الكبرى ، والنار الكبرى .

واستعمال التيسير مع العسرى ، مبالغة في الوعيد والتذير لمن يجمل واستغنى . وقد نظر له « الراغب » في (المفردات) بقوله تعالى :

« فبشرهم بعذاب أليم » والآية وعيد للذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله .
(التوبة ٣٤)

ومثلها آيات : (النساء ١٣٨ ، والتوبة ٣ ، لقمان ٧ ، والجاثية ٨ ، وآل عمران ٢١ ، والانشقاق ٢٤)

وفيا التبشير بعذاب أليم ، للمنافقين ، والكفار ، والمستكبرين ، والباغين . كالتيسير للعسرى : مبالغة في الردع والتذير لمن يجمل واستغنى .

• • •

« وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

سبق استقراء آيات الغنى في القرآن ، في تفسير آية الضحى « ووجدك عائلاً فأغنى »^(١) ، وقد هدى إلى الفرق بين الغنى والثراء ، إذ يغلب أن يكون الغنى غنى النفس وإن لم يوجد المال ، ولا يكون الثراء إلا بالمال ، ما لم يُستعمل مجازياً . والردي في اللغة الهلاك ، ومن استعماله الحسية الأولى : الرداة الصخرة ، ورداه وأرداه رماه بها وصدمه ، وتردّى في البئر سقط . ثم استعمل في مطلق الهلاك .

(١) في سورة الضحى ، من الجزء الأول للتفسير البياني .

و « تَرَدَّى » في القياس الصرف مطاوع الفعل أردى ، بمعنى أهلك وأوقع في الردى .
 وفي القرآن الكريم : يأتي الفعل الثلاثي لازماً غير متعد في آية :
 « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى • فلا يصدنك
 عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (طه ١٦)

وجاء الفعل الرباعي متعدياً ، في آيات :

« وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم ، أرداكم فأصبحتم من الخاسرين »
 (فصلت ٢٣)

فاطلع فرآه في سواء الجحيم • قال تالله إن كذبت لتردين •
 (الصافات ٥٦)
 (والأنعام ١٣٧)

وجاء التردى ، بصيغة اسم الفاعل « المتردية » في آية (المائدة ٥) وفعلًا ماضياً في آية
 الليل .

وهذا هو كل ما في القرآن من المادة .

وبه نستأنس في فهم قوله تعالى : « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » بأنه التردى في
 مهواة الهلاك .

وقول الطبرى : « إنه التردى في جهنم لأن ذلك هو المعروف من التردى » أقرب
 إلى المعنى والسياق من قول قوم ، فيما نقل أبو حيان (١) « بأنه التردى بالكفان » أخذه
 من الرداء ، ونظروا له بقول « مالك بن الرب » :
 وخُطاً بأطراف الأُسنة مضجعى ورُداً على عينيّ فضلَ ردايتا
 وقول الآخر :

نصيئك مما تجمعُ الدهرَ كله رداءان تُكوى فيها وحنوطُ
 وهذا التأويل بعيد من سياق النذير في آية الليل ، لأن التردى برداء الكفن
 لا يختص به كافر دون مؤمن .

وفي التوجيه الإعرابي للآية ، جُوزوا أن تكون (ما) فيها نافية ، وأن تكون استفهامية .

والنفي عندنا أولى ، لما فيه من ملحظ التقرير لعدم غنى المال عن البخيل المكذّب ، إذا تردى .

• • •

« إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ » .

الهدى الإرشاد إلى الطريق المستقيم ، وأكثر ما يجيء في القرآن الكريم ، نقيضاً للضلال والكفر .

والآخرة والأولى في الاستعمال اللغوي النهاية والبداية ، أو المصير والمبتدأ ، ملحوظاً فيها الإتيان في الآخر ، وفي الأول .

وتأتى الآخرة والأولى في المصطلح الديني بمعنى الحياتين الآخرة والدنيا . والأول والآخر من أسماء الله تعالى الحسنی^(١) .

وفي آية الليل ، فسر « الطبرى » الآخرة والأولى ، بأن « لنا ملك ما في الدنيا والآخرة ، نُعطي منها من أردنا من خلقنا ونحرم من شئنا . وإنما عنى بذلك جل ثناؤه أنه يوفق لطاقته من أحب من خلقه فيكرمه بها في الدنيا ويبيئ له الكرامة والثواب في الآخرة . ويخذل من شاء خذلانه من خلقه عن طاعته ، فيبينه بمعصيته في الدنيا ويجزئه بعقوبته في الآخرة » .

واقصر فيها الزمخشري في (الكشاف) على ثواب الدارين للمهتدى .

ومثله « أبو حيان » في (البحر المحيط) .

ونقل الرازى قول من قالوا في تأويل الآية : « إن لنا كل ما في الدنيا والآخرة فليس بضرنا ترككم الاهتداء بهدانا ، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤكم ، بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم ، ولو شئنا لمنعناكم من المعاصي ، إذ لنا الدنيا والآخرة » .

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب ، سبق استقراء آيات الهدى والضلال والآخرة والأولى في آتى الضحى ، وللآخرة خير لك من الأولى - ووجدك ضالاً فهدى - وفي آية النازعات : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

ورأى فيه ما يُخِلُّ بالتكليف .

كما نقل ما ذكرنا من تأويل الطبرى ، وصرح بأن هذا الوجه من التأويل أوفقُ لقوله .

ونرى أن قصر معنى الآية في تفسير الزمخشري على « ثواب الدارين » يمنعه العمومُ المستفاد من صريح السياق في البشرى والتذير معاً .

ودون خوض في مشكلة الجبر والاختيار ، نطمئن في الآية إلى أن الله سبحانه إليه المصير كما له المبتدأ . وهو تعالى يهبئ لخلقه في الدنيا طريق الحق والهدى ، وبقدر ما يستجيبون لداعى الهدى أو يصدون عنه ، تكون النهاية والمصير إلى الخالق في الآخرة .

ونلتفت إلى ملحظ يبان في الآية ، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة . وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى ، وإنما اقتضاه المعنى في سياق البشرى والتذير ، إذ الآخرة خير وأبقى وعذابها أكبر وأشد وأخزى وأبقى ، وأن الآخرة هي دار القرار .

وكذلك قُدِّمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، بآية الضحى :

« وَللآخرة خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى » .

كما قدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون إذ أدبر وتولى : « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » بآية النزاعات .

وفي مثل هذا السياق من الوعيد ، تتقدم الآخرة على الأولى في آية الليل ، متلوة بهذا التذير :

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى » .

والتلظى في العربية اللهب الخالص ، والتلظى تَسَعَّرُ النار واحتدامُ توقدها .

وفي الاستعمال القرآنى جاءت « لظى » للجحيم في آية المعارج ١٥ :

« كَلَّا إِنهَا لَأَنَّى لَطْفَى • نَزَاعَةٌ لِلشُّوَى • تَدْعُو مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّى • وَجَمَعَ فَاوَعَى » .

والإنذار بنارٍ تَلَطَّى ، في آية الليل ، عام كالعموم المستفاد من الآية قبله : « إن سعيكم لشتى » .

ثم تأتي الآية بعده فتخص من يصلها ، وهو - كما في آية المعارج - من كذب وتولى :

« لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى • الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

قيل في تفسير • لا يصلها • : « معناه لا يصطلى بها إلا الأشقى » (١) . وهو ما لا يطمئن إليه حس العربية في استعمالها الصلَّى للشئ في النار أو بها : صلى اللحم صلِّياً ألقاه في النار وشواه . وصلَّى النارَ وبالنار : قاسى حرَّها وهيئها . وينقل مجازياً إلى : صلى نار الحرب .

أما الاصطلاء فقلما يُستعمل إلا في التماس الدفء من النار ، على وجه التخصيص .

وهذا الفرق بين الصلى والاصطلاء ، هو ما يهتدى إليه البيان القرآني ، حين يستعمل الاصطلاء في الدفء بمخاصة ، في قول موسى لأهله حين آنس ناراً : « امْكثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » (القصص ٢٩ ، النمل ٧)

على حين يأتي الصلى والتصلية ، في التعذيب بالنار ومقاساة حرَّها وهيئها ، باستقراء مواضع استعمالها بالقرآن الكريم ، وعددها ثلاثة وعشرون .

ويختص الصلى فيها جميعاً ، فعلاً ومصدرًا واسمَ فاعل ، بنارٍ الجحيم . وعيداً للكافرين والمكذبين والمغرورين المفتونين بالمال والجاه والبئنين ، فهم صالو الجحيم ، يَصْلُونَ سعيراً ، وسَقَرًا ، والنارَ الكبرى ، وناراً ذاتَ لهب ، جهنم يَصْلُونَهَا وبئس القرار ، فبئس المهاد ، فبئس المصير .

وبهذا كله نستأنس في فهم « لا يصلها إلا الأشقى » فلا يكون بمعنى الاصطلاء

(١) مفردات الراغب - مادة : صلى .

الذى يحمل دلالة الاستدفاء ، وإنما هو الصلّى بمعنى الشئ والتعذيب باللهيب المستعرف في الجحيم .

والشقاء لغةً نقيضُ السعادة . وأصل استعماله في الشدة والعسر ، والشاق من الجبال الحادُّ الميل الطويل .

وحين تستعمل العربية الشقاء في التعب ، فإن ذلك يكون بملحظ من الشدة والعسر ، دون أن يترادف الشقاء والتعب ؛ وهو ما نبه إليه « الراغب » بقوله في المفردات : كل شقاوة تعبٌ ، وليس كلُّ تعب شقاوة .

ويأتى الشقاء في الاستعمال القرآنى خاصاً بمحنة الضلال ، إما بصريح اللفظ كما في آيتى :

« فن أُنْبِغْ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى » (طه ١٢٣)

« قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » (الزمنون ١٠٦)

وإما بدلالة السياق كما في الآيتين :

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا يَأْذِنَهُ فَنهَمُ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا

فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ . » (مرد ١٠٥ ، ١٠٦)

وليس بعيداً من معنى الضلال ، عصيانُ أمر الله ، في قوله تعالى خطاباً لآدم

وزوجه :

« فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » وآيات مريم :

« وَلَمْ أَكُنْ بِدَعَائِكَ رَبًّا شَقِيًّا » .

« وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا » .

« عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا » .

وجاءت صيغة « أشقى » في ثلاث آيات ، آية الشمس :

« كَذَبَتْ ثُمُودٌ بِطَفْوَاهَا . إِذْ انبَعَثَ أَشْقَاهَا » .

والإضافة تقيده بالماضف إليه ، فهو أشقى ثمودَ وأصلها وأطفاها .

والأشقى ، معرفةً بأل ، في آيتى الأعلى والليل ، والسياق فيها متشابه ، وعدم

الإضافة فيها يُطلق « الأشتى » من كل قيد ، فلا مجال لمفاضلة بين أى شتى ، وهذا الأشتى : « الذى يَصَلَّى النار الكبرى • ثم لا يموت فيها ولا يحيى » .
ناراً تَلْظَى « لا يصلها إلا الأشتى » .

والأشتى فى آية الليل : « الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

الكذب فى العربية ، عدم مطابقة القول للواقع أو لما فى الضمير ، ومنه الآية فى إخوة يوسف : « وجاءوا على قبيصه بدم كذب » . ويستعمل فى إخلاف الظن والرجاء .
والتكذيب نقيض التصديق . ولا يأتى التكذيب فى الاستعمال القرآنى ، إلا بالمعنى الدينى فى التكذيب بالله وآياته وآلائه ورسالاته ورسله ، ولقائه ، واليوم الآخر .
والتولى : الإعراض والإدبار .

وقد جاء قريناً للكفر والتكذيب ، مع مثل هذا الوعيد بالعذاب ، فى آيات :
« لستَ عليهم بِمُصِطِرٍ • إلا من تولى وكفر • فيعذبه الله العذابَ الأكبر »
(الغاشية ٢٢)
ومعها آيات :

« فلا صَلِّقَ ولا صلى • ولكن كَذَّبَ وتولى » (القيامة ٣٢)
« إنا قد أوحىَ إلينا أن العذابَ على من كَذَّبَ وتولى » (طه ٤٨)
« كلا إنها لَظَى • نزاعةً للشوى • تدعو من أدبر وتولى »
(المعارج ١٥)

والإدبار فيها إعراض وصدٌّ عن الحق .

« وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى • الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

تنفرد الآية هنا بصيغة « الأتقى » معرفةً بأل ، وجاء أتقى مضافاً إلى ضمير المخاطبين ، الناس ، فى آية الحجرات :
« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
فقيّد بهذه الإضافة إلى ضمير الناس المخاطبين ، لا على الإطلاق فى « الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى » .

وأصل الزكاة في اللغة النمو، ومنه زكا الثمر بمعنى طاب حين ينضج ويؤتي أكله .
ويستعمل في المعنويات بملحظ من الخير والبركة .
وزكى الشيء أو الشخص شهد له بالخير والصلاح والتقوى ، ومنه في القرآن
الكريم آية النجم ٣٢ :

« فلا تُزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

والتركية أيضاً التهذيب والتطهير ، ومنه في القرآن الكريم آيتا آل عمران ١٦٤ ،
والجمعة ٢ :

« يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

وقد نُقلت الزكاة إلى المصطلح الشرعى فيما يؤتبه المؤمن من ماله فريضةً ، فيزكو
المال ببركة الله وثوابه .

وتأتى صيغة الزكاة في القرآن الكريم خاصة بالفريضة ، في كل مواضع ورودها
وعدها اثنان وثلاثون موضعاً .

وفي المال أيضاً جاء فعلُ التركية بآية التوبة ١٠٣ :

« خذ من أموالهم صدقة تُطهرهم وتركيهم بها » .

ومثله التركي في آية الليل ، مع إتياء المال .

والإيتاء هو البذل .

وأصله في اللغة الإعطاء مع سهولة ويسر : فالأيتى السيلُ . وتأتى الأمر سهلاً
وتيساً ، ومأتاه جهته التي يسهل إتيانه منها . وآتت الشجرة أكلها أعطته في يسر
وسخاء ، ومنه في القرآن الكريم آية البقرة ٢٦٥ :

« ومثلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثلِ

جَنَّةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتتْ أكلها ضعفين » .

ومعها آيات (الرعد ٣٥ ، وإبراهيم ٢٥ ، والكهف ٣٣) .

والملاحظ اللافت في البيان القرآنى ، أنه إذ يعلق الزكاة مرةً واحدةً بفاعلين في آية

المؤمنين ٤ :

« والذين هم للزكاة فاعلون » .

يحيىء بها في سائر الآيات مع الإيتاء ، مصدرأ .

• وإيتاء الزكاة • في آيتي (النور ٣٧ ، والأنبياء ٧٣)

واسم فاعل في آية النساء ١٦٢ : • والمؤتون الزكاة •

• وفعلاً ماضياً : • وآتى الزكاة • في آيات (البقرة ١٧٧ ، والتوبة ١١ ، ١٨ ، والنور ٥٦) .

• وآتوا الزكاة • في آيات (البقرة ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ ، ٢٧٧ ، والنساء ٧٧ ، والتوبة ٥ ، ١١ ،

والحج ٤١ ، ٧٨)

• وآتيم الزكاة • في (المائدة ١٢ ، والروم ٣٩) .

وكذلك الفعل المضارع وفعّل الأمر ، في كل مواضع استعمالها .

وبكل هذه الآيات نستأنس في فهم الآية : « الذي يؤتى ماله يتزكى »

بملحظ من دلالة الإيتاء على يُسّر الإعطاء وسماحة البذل .

وفي الصنعة الإعرابية قالوا : إن جملة « يتزكى » على النصب في موضع الحال .

وأجاز الزمخشري ألا يكون لها موضع من الإعراب ، لأنه جعل يتزكى بدلاً من صلة

الموصول في « الذي يؤتى » .

وهو كما لاحظ « أبو حيان » إعراب متكلف .

والحالية عندنا أولى بالمقام .

• • •

« وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى » .

تعلق بعض المفسرين بالصنعة البديعية في يحيىء • تُجْزَى • على البناء للمجهول .

فحملوه على مجرد رعاية الفاصلة . قال أبو حيان :

« وجاء تُجْزَى مبنياً للمفعول لكونه فاصلة ، وكان أصله : نَجْزِيه إياها أو نجزيها

إياه »^(١) .

وهذا ملحظ شكلي من الزخرف البديعي لا نقول بمثله في البيان الأعلى ، وإنما جاء

البناء للمجهول لمقتضى معنوى ، وهو أن البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحد أو من

أحد ، على الإطلاق ، وإنما هو خالص لوجه الله تعالى .

(١) البحر المحيط : ج ٨ / ٤٨٤ .

وواضح من الآية أن هذا المال المبدول ، لم يؤته الذى يتركى جزاء على نعمةٍ سبقت لأحدٍ عنده ، أو ابتغاء نعمة لأحدٍ يميزه بها على هذا البذل . لكن من المفسرين - فيما نقل الإمام الطبرى - من وجهها على خلاف هذا ، فتأول الآية : وماله عند أحد فيما أنفق من نعمة يلتبس ثوابها وجزاءها .

وليس الأوّلَى ، فصريح النص • وما لأحد عنده • لا يأذن بتأويله على قولهم : وماله عند أحد .

« إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى • وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

القراءة بنصب ابتغاء ، هى قراءة الجمهور .

والنصب فيه عندهم ، إما على الاستثناء ، أو مفعولاً لأجله كما ذهب « الفراء » و « الزمخشرى » فى الكشاف . ويؤنس إليه غلبة مجيء ابتغاء ، مفعولاً لأجله فى الآيات التى استعملت هذه الصيغة على النصب .

وأما القراءة بالرفع ، فتأولوه فيها على البدل من نعمة ، وهى فى الصنعة الإعرابية فى موضع رفع ، وحرف الجر قبلها زائد (البحر المحيط) .
والابتغاء فى اللغة ، التماس بغية يجتهد فى طلبها .

ويكون فى الشر بملحظ من البغى والعدوان وتجاوز الحد . ومنه فى القرآن الكريم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله (التوبة ٤٨ ، وآل عمران ٧) والعدوان (المؤمنون ٧ ، والمعارج ٣١) وابتغاء عَرَضِ الحياة الدنيا (النساء ٣٤ ، والرعد ١٧) .

ويكون الابتغاء فى الخير ، بملحظ من الدأب فى التماسه والاجتهاد فى طلبه ، وهو ما يبدو بوضوح فى آيات السعى فى البرِّ والبحر ابتغاء فضل الله وورقه :
(النحل ١٤ ، والإسراء ١٢ ، ٦٦ ، والقصص ٧٣ ، والروم ٢٣ ، ٤٦ ، وقاطر ١٢ ، والجاثية ١٢ ، والمزمل ٢٠ ، والجمعة ١٠) .

كما يبدو ملحظ الدأب فى العبادة ، والجهاد ، ابتغاء فضل الله ورضوانه فى مثل آيات :

« تراهم رُكعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » (الفتح ٢٩)

« إن كنتم خرجهم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » (المتحنة ١)

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من
الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » (الحشر ٨)
ومثله الدأب في الخير ، إنفاقاً للمال وسعيًا في معروف وإصلاح بين الناس ابتغاء
مرضاة الله ، كالذى في آيات :

« لا خيرَ في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح
بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله فسوف نؤتيه أجرًا
عظيمًا »
(النساء ١١٤)

ومعها آيات : (البقرة ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، والرعد ٢٢) .

ولا مجال للخوض هنا فيما تعلق به المحسمة من لفظ « وجه » وما حفلت به كتب
الكلاميين من تأويل له ، وإنما نوجه ههنا إلى التفسير البياني ، فنقول :
الوجه في اللغة ما يستقبلك من كل شيء ، وأكثر ما يستعمل حسياً للوجه المعروف
من الجسم . ومنه في القرآن الكريم ، آيتا يوسف ٩٣ ، ٩٦ :
« اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً » .
« فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً » .
وآية الذاريات في حديث إبراهيم :

« فأقبلت امرأته في صرةٍ فصكت وجهها وقالت عجوزٌ عقيم » ٢٩ .
وآيات الوضوء : « فاغسلوا وجوهكم »

« والتيمم : فتميموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه »
(المائدة ٧)

والقبيلة : « قولٌ وجهك شطرَ المسجدِ الحرامِ . وحيثما كنتم فولوا
وجوهكم شطره »
(البقرة ١٤٤)

والعربية تطلق الوجه ، مراداً به الذات . من حيث كان الوجه هو الذى يميز
الشخص ويمدد ملامحه . ومنه جاء استعمالُ الوجوه لأعيان القوم .

ويعلمحظ من كون الوجه هو أول ما يُستقبل من الجسم ، جاء الوجه بمعنى القصد

والاتجاه .

وقد جاء « وجه » مضافاً إلى الله سبحانه في إحدى عشرة آية من القرآن الكريم ،
ثمان منها فيما ينفق المؤمنون ابتغاء وجه الله ، وفي المتقين من عباده يريدون وجهه تعالى .
وآيات :

« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله » (البقرة ١١٥)

« كلُّ من عليها فانٍ • ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرام »

(الرحمن ٢٧)

« لا إله إلا هو كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه » (القصص ٨٨)

قيل في تأويلها إن لفظ وجه « في كل هذا زائد ، والمعنى : فثمَّ الله ، كل شيء هالك إلا هو ، وابتغاء الله . . . » .

وأنكره بعضهم وقالوا : « إنما الوجه من معنى القصد والتوجه » (١) .

ونقتصر هنا في التفسير البياني ، على ما ألفتة العربية في إطلاقها الوجه مقصوداً به الذات ، وفيها جرى عليه بيانها من مثل : وجه الحق ، ووجه الأمر ووجه الرأي ، ووجه النهار . . . دون أي ملحظ ينم عن تجسيد !

• • •

وأشار الرازي في تفسيره إلى ما يتعلق به الملحده في « ربُّه الأعلى » من اقتضاء أن يكون هناك رب آخر دونه في العلو (٢) .

وذلك من عقم الحس فيهم ، يغيب عنه سيرُّ العربية في إطلاق هذه الصيغة دون قيد بمفضول ، وإنما القصد إلى المضي بالعلو إلى نهايته القصوى ، على ما التفتنا إليه في تدبر صيغ : الحسنى واليسرى والعسرى ، والأشقي .

ونظيره في الإطلاق بغير حدود ولا قيود ، قوله تعالى في سورة الأعلى : « سبح اسم ربك الأعلى » لا يعني أن هناك رباً عالياً دونه ، وإنما هو إطلاق للعلو إلى أقصى مداه ، دون ملحظ من المفاضلة بين أعلى وعالي (٣) .

• • •

(١) الراغب : مفردات القرآن (وجه) .

(٢) التفسير الكبير : ٨ / سورة الليل .

(٣) بزيد تفصيل في مبحث : السجع ورعاية الفاصلة ، من (الإعجاز البياني للقرآن) .

وأكثر المفسرين على أن فاعل « يَرْضَى » المضمَر ، هو الأتقى الذى يؤتى ماله بتركى .

وتؤثر أن نبقية على إطلاقه ، فيحتمل رِضَى الأتقى ، وِرِضَى ربه الأعلى .
والبيان القرآنى يأتى بهذين الوجهين من الرضى متلازمين ، فى مثل آية الفجر :
« يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ • ارجعى إلى ربِّك راضيةً مرضيةً » .
وآيات : البيئنة فى خير البرية ، والمجادلة فى حزب الله ، والمائدة فى الصادقين :
« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .
وفسروا رِضَى العبد عن ربه فى آية الليل ، بأنه لا يكره ما يجرى به قضاؤه تعالى .
(مفردات الراغب) .

وهذه العبارة تقصر عن جلال الآية : « ولسوف يرضى » .
ولن تكون غاية رِضَى الأتقى الذى يؤتى ماله بتركى ابتغاء وجه ربه الأعلى ، إلا أن يرضى عنه ربه ، ولسوف يرضى .
وإنها لكَمَا قال « ابن القيم » : أعلى الغايات وأشرف المطالب ^(١) .

وعلى هذا النسق من البيان المعجز ، يتم الربط بين المُقسَم به فى أول السورة :
« واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى • وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى • وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى »
والمقسَم عليه من تفاوتِ سعى البشر فى الأولى ، بين إعطاء خيرٍ وتقوى وتصديق
بالحسنى ، وبخلٍ خاسرٍ وتكذيبٍ بالحسنى .
ثم التفاوت فى الأخرى ، بين مصيرِ الأشقى الذى يَصلى ناراً تَلْطَى ، والأتقى
« الذى يؤتى ماله بتركى • وما لأحد عنده من نعمةٍ تُجْزَى • إلا ابتغاء وجهِ ربه
الأعلى • ولسوف يرضى » .

صدق الله العظيم